أم كلثوم تلقى درســـا

للأستاذ عبد المنعم خلاف

منذ أن غردت أم كلثوم تلك القصيدة الفذة (سلوا قلبي غداة سلا وتابا) لأول مرة وأنا أشعر أن القلم يريد أن يسجل شيئاً لا بد من تسجيله إزاء ما تجلى في هذه الأغنية من البيان الرفيع والوضوع الكريم والتلحين الشرقي الخالص .

غير أن الأيام قد ذهب مطلها بالقلم مذاهب النسيان والإبطاء ، ولكن ما تتأذى به الآذان كل يوم من الأغاني التافهة المسمومة يلح عليّ بذكرى هذه الأغنية والتنويه بها ، ولفت أنظار وزارة الشئون وعطة الأذاعة بما يجب قوله تعليقاً على هذا الحادث الأول من نوعه في أغاني أم كلثوم ، بل ربما في أغاني هذا الجيل الذي احتملت أعصابه من سموم الأغاني التافهة المسمومة الساقطة ما سمم المنابع وأسقط الهمم وأفسد الذوق وأطفأ الأشواق الرفيعة التي تضطرم في الأفئدة حين تهب عليها الأصداء والهتافات وأنسام الشجو من حنجرة تفرد على طبيعتها السليمة القوية ، أو وتر يرتعش في يد ينصب إليها النغم الذائب الحادر في أعصاب العازف المترجم عن تلك الخفايا والأسرار والكلمات المكنونة في الكون ولا يخرج خبأها ويكشف سرها إلا أنامل عازف يعرف كيف يخنق الوتر الدقيق فيخرج حنينه ، أو فم ساحر ينفخ في الناي فيخرج أنينه ، أو لامس ماهر يلمس الطبل أو الدف فيهيج شجونه ، ويرسلها في دبيب ودوي رهيب إلى الأسماع والأوصال فيدخل عليها من هواتف ماوراء المادة والكثافة والجمود مايدخل !

ولقد هبّ على قلوب سامعي هذه الأغنية من أم كلثوم نسمات رفيعة من الطرب الحق الذي يثير أعظم ما في النفس الإنسانية من أحاسيس الحب والجمال والقوة والدين والوطنية والبر والتبتل والألم اللذيذ الوديع والرحمة القلقة الملهوفة ، والثورة العازمة الواثقة ، ما أجرى فيها طهارة ونقاء يطردان الدم الأسود المسموم ، ويجريان بدله الدم النقي الطهر للنفوس من عوامل الضعف والفسولة والتخدير والحب الوضيع .

ولقد تقبل الجمهور المصري هذه الأغنية بكل حواسه الموسيقية والمعنوية في الحب والدين والوطنية بما يشجع على أن تتجه الأغاني إلى خدمة الأهداف القومية والأمجاد الرفيعة خدمة لا تتأتى إلا عن طريق الأناشيد السائرة على الحناجر الساحرة التي لها من السلطان على نفوس جماهير الرجال والنساء والأطفال ما ليس لقواد الاجتماع والسياسة والدين ، وخاصة في هذا العصر الذي تلاحق فيه الإذاعة الفرد في كل مكان وتقتحم عليه حتى مخادع نومه .

وقديماً كانت « الأصوات » التي يغنيها المغنون العرب للخلفاء والسلاطين والجماهير من منتقى الشعر الرفيع ، وكان الغناء بها من أسباب رواج الأدب الكريم .

وكان للبيت الواحد أو للأبيات التي يتغنى بها التأثير اللازم لمعانيها والنتائج الحتمية لدى سامعيها ، حتى إن غناء أحد المغنين ببيتين في مجلس الرشيد كان الحافز الثير والنقطة المطفئة التي طفحت بها كأس الرشيد فأنزل نكبته بالبرامكة .

ولو علمت أم كلثوم وعبد الوهاب وغيرهما بمدى سلطانهم على تربية الناشئين لخافوا الله في تلك النفوس الغضة التي تلاحقها أغانيهم من المهد .

* * *

وفي الموسيقى تستعرض قلوب الأمم ، وقد استطاعت كل أمة أن تلقط توقيعات من طبيعة بيئتها التي تعيش فيها تطرب لها وترقص بها في ساعات الطفور والمرح والهيام في عالم الرؤى والأحلام ، وتعرض فيها أغانيّ حياتها وأصداء الهواتف الطبيعية في آذانها وصور الدنيا الباطنة كما تراها في مرآتها الخفية .

فالقلب العربي أو المكسيكي أو الهندي أو الألماني أو الزنجي أو غيرها يمكنك أن تعرف خلاصة اتجاهاته في الحياة حين تسمع ألحانه وأشواقه فيها .

ويودي أن يجتمع جوق عالمي عظيم من فنانين عالميين ليضع ألحاناً آخذة من جميع الأصداء والهواتف لتوجيه قلوب البشر ليدركوا السر الواحد الذي في قلوبهم جميعاً بدون ألفاظ .

وبودى كذلك أن أجمع الوجوه الإنسانية الكريمة من الأجناس المختلفة وتؤلف منها (هرمونى) وتناسقاً بصرياً يرى عشاق التحف والطرف ما فى العقد البشرى المنظوم من جمال وثراء ...

وبودى كذلك أن أقيم ممرضا للطفولة الإنسانية البريئة الموحدة اللغة والإشارة والإدراك قبل أن تأخذها سبل أممها المتفرقة فتجعلها أباديد متناكرة كأنها قصائل أجناس متعادية متناقضة ...

وبودى كذلك أن أقيم ممرضاً للقمم الإنسانية العالية العاملة المجاهدة القريبة من عرش الله بالنسك والفكر والعلم والعمل ، حتى يراها الفاجرون القاعدون فى السفح ... بودى كل أولئك ! ولكن ما مبلغ جهدى غير الآمال والأحلام السعيدة ...

***

وإنى لأتساءل : من أين أتى الإنسان بهذه الأنغام العالية المعقدة التى يخرجها من المزامير والصنوج والأوتار ؟ إن كل أصوات الطبيعة ساذجة محدودة المقاطع ليس فيها إلا توقيع بسيط، فكيف أتى الإنسان بهذه الألحان التى تهيج أعصابه وتثير أشواقه نحو الجمال والحياة وتأخذ بأنفاسه وحواسه نحو المجهول ؟ ولماذا تثير الألحان العظيمة قوة الإيمان وانفساح مدى الحياة فى أعماق القلوب ؟ أيكون ذلك ناشئاً من أن روح هذا الإنسان ذات ذخيرة كامنة من أيام حياة فى عالم ذى طرب دائم ، فلما أخرج منه وأنسى ما فيه صار يبحث فى ذهول ولهفة إلى إيجاد أصداء وصور منها فى هذه الدار الفانية ؟ فجعل ينبش فى ذبذبات الأوتار والصنوج عن ذلك النغم الذى كان يعمر جو الجنة ويختلط بأنفاس رياحها ويهب على النفس مع هبوب نسماتها وخفوق خافقاتها ؟

إنى أشعر أن لتلك الأصداء الموسيقية تأثير الحياة أو الموت على الأعصاب ... إن لها فى الأعصاب وحياً كوحى النسمات وقطرات الندى ودفقات المزن ونضحات الأشعة وانعكاسات الألوان .. إنها أقواء نافحة من شذى الجنة أو لافحة من زفرات جهنم أحياناً . وإنى أتلقاها بحاسة خاصة . والألفاظ هنا تضيق والشرح يترك للوجدان المشترك لدى كل حساس . إنها من أعجب ما أودع الله فى طبيعة الأشياء !.

وإذا قيل إن الألفاظ والمعلومات « أشياء » أفادها الإنسان من محيطه وتسلسلت حتى تركبت فى عقله وصارت هكذا كما تراها معقدة ؛ فماذا يقال فى النغمات ؟ إنها لا تكون أكثر من فيض نفسى ، ولا تكون نقلا عن «معلوم» فى الطبيعة ، وإنما هى تعبير خفى يفيض به همس المجهول فى أعماق النفس . ولذلك قال القدماء عنها إنها أفضل كلام نفسى ضاق عنه النطق ..

وإن الآلات الموسيقية تظل صامتة خرساء حتى تمسكها يد الإنسان فتنطقها بالأغاريد الغريبة التى فى قلبه هو لا فى قلبها هى..

والشخصية الموسيقية شخصية خفية ليس لها مدد تستعلن به إلا من داخلها ، وإنى لأسمع إلى الموسيقى الألمانية فى ألحان عباقرتها فأدرك ما فى نفس الألمان من كبت وتمزيق وهيام وحيرة وصوفية عاجزة عن رؤية الطريق ، ورمزية وصرخات الإنسان الفريد المحس بضياعه فى رحاب الكون ..

وأسمع إلى موسيقى الزنوج فأحس فيها طمأنينة الجهل وصخب الغرائز ومجابهة المجهول بدون إحساس به وحيرة فيه .

وهكذا أغلب ألحان الأمم .

ولكنى حين أسمع أكثر ألحان الموسيقيين المصريين المحدثين أشعر بشىء مخدر كئيب لا فلسفة فيه ولا أصالة طبع معه ، وإنما يختبىء وراءه « دعاء جنسى » مريض غير صحيح الذكورة ولا صحيح الأنوثة .

فهل تدرك « وزارة الشئون الاجتماعية » ذلك أو لا تدركه ؟ إن كانت تدركه فما أحراها وهى المشرفة على الإذاعة الموسيقية أن تحمى الجيل الناشىء من هذه السموم المخدرة التى تنفثها تلك الموسيقى التافهة وأن تجرب وضع برامج من الموسيقى القوية تستعين فى وضعه باللفظ القوى واللحن القوى والذوق الناقد الذى يدرك خطورة الأمر .

وإن كانت لا تدركه فما أضيع هذه الأمة التى تتخذ على شئونها رعاة يسيرهم القطيع !

عبد المنعم خلاف